المشهد

العدد 308 السنة العا... من 17-23 جمادى الآخرة 1443هـ

قالت العرب

أنا على الدَّرْب يا وادي الحَرير هَوىً / بَيْنَ الحَبيبَيْن ما قَلْبي بمُنْقَسم
/ أفْدي العُيونَ الشَّآميَّات ناعسَةً / بالنَّوْم هَمَّتْ عَلى حَلْم وَلَمْ تَنَم / هُنَّ
اللَّواتي جَرَحْنَ العُمْرَ منّ شَغَف / وَطرْنَ بي نَغَماً يَبْكي بكُلّ فَم / قلبي
مِنَ الحبِّ كَرْمٌ لا سِياجَ لَهُ / نَهْبٌ الأَحِبَّةِ مِنْ سَاهٍ وَمِنْ نَهِم

الطيب يواجه العواصف المذهبية والمؤامرات السياسية بحنكة وذكاء ورباطة جأش

أحدثكم عن «شيخ الأزهـر»

غادر مكتبه لتأخر وزير الخارجية البريطاني ربع ساعة عن موعده فاضطرَّ الوزير لزيارة الإمام في بيته!

غضب وألغى السفر للسعودية، لاستلام جائزة الملِك فيصل احتجاجا على الحجز له بالدرجة الأولى، والحجز للوفد المرافق له في درجة عادية

ارتبط "الأزهر" عبر تاريخه الذي تجاوز الألف عام، بالعديد من الأسماء والرموز التي قامت علَى أكتافهم رسالة الجامع السِّياسية والعلمية والدعوية والفكرية، أمثال: الشَّيخ "عبد الله الشرقاوي" الذي ساند المشروع الإصلاحي لعلي بكَ الكبيرفي أواخر القرن الثَّامن عشر. والشَّيخ "حَسن العطار" الذي قاد الثورات ضد الفرنسيين. والشَّيخ "المراغي" الذي ردَّ للأزهر اعتباره. والشَّيخ "محمود شلتوت"، والدُّكتور "عبد الحليم محمود" و"جاد الحقّ". وها هو الشيخ (أحمد الطيِّب) الإمام الثامن والأربعين للجامع الأزهـر؛ الذي واجه العواصف المذهبية، والمؤامرات السياسية بحنكة وذكاء، ورباطة جأش ... حسْبهُ أنَّ الجماهير الغفيرة خرجت تؤازره عندما شعروا أنَّه يتعرض لضغوط شيطانية، ومكائد إبليسيَّة!!

لقد نشأ الشيخ "أحمد الطيِّب" في بيت شامخ من بيوت المعرفة والصلاح، وسليل أسرةٌ عريقة طاهرة؛ فأبوه العالم الجليل الذي طلَّق الدُّنيا وما فيها، وَغَلَبَ عليه الوَرعُ إلى الحد الذي يَعجزُ القلمُ عن التعبير عنه ... ولطالما استمتعنا بمواعظه في ساحة آل الطيِّب» بالبر الغربي بالأقصُر!

من عادة (آل الطيِّب) ألا يفعل أحد منهم شيئاً، ولا يقضي أمراً حتى يستأذن ممَّن هو أكبر منه! من ذلك؛ أنَّ الدكتور «أحمد الطَّيبَ» عندما قرر السفَر إلى «السوربون» لإنجاز رسالة الدكتوراه، استأذن والده، فقال له: أمهلني حتى الصباح، فرأى له رؤيا منامية، فسمح له بعدها بالسفر!

وعندما اختيرَ (مُفتياً) للديار المصرية؛ أسرع، واستشار والده، فقال له: لقد رأيتُ ذلك ليلة أول أمس، فاقبلها يا ولدي ولنْ تمكث فيها طويلاً، وقد حدث بالفعل!

وبعد وفاة والده؛ صار «الإمامُ» يذهب إلى أخيه الأكبر الشيخ «محمد بن محمد الطيِّب» يُقبِّل يده، ويستشيره في كل أمر يَجدّ له. من ذلك، أنه عندما اختيرَ «رئيساً لجامعة الأزهر» أنطلق إلى الصعيد الجواني، ليأخذ موافقة أخيه، فصلَّى، ونادى عليه .. وأذنَ له بقبول ذلك المنصب!

لقدَ ربطتني علاقة وثيقة بالشيخ «أحمد الطيِّب» ... وكثيراً ما أغتنمُ فرصة وجودي معه في طرح الأسئلة العقديّة والفلسفية على فضيلته ... وقد سألته -ذات مرة- عن مكانة مصر بين الشعوب والأمم، فقال: «مصـر هـي المؤهلة لجمع كلمة المسلمين، وقيادة الأمة، وذلك بحكم وجود الأزهر بها؛ فهو المعهد الوحيد الباقي للحفاظ على القرآن الكريم وعلومه، والسنة النبوية وتراثها. وعلى الرغم من وجود الأزهر جغرافياً على أرض مصر؛ إلا أنه موجود في كل شبر من بلدان العالم؛ لأنه يمثل المنارة التي تهفوا إليهَا أفئدة المسلمين من كل أرجاء الدنيا، ومازال هو المدرسة الحقيقية التي يلجأ إليها المسلمون في الداخل والخارج، سيَّما أن وحدة الأمة باتت الهدف والغاية، ولنا الأسوة الحسنة في الرسول الأكرم الذي أسَّسَ دولته على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار»!

وعن رسالة الأزهـر الحضارية، يقول الطيِّب: «سيبقى «الأزهـر» أشعريَّ المذهب، وسطيّ المنهج، محافظاً على فقه الأئمة الأربعة، وتصوّف الإمام الجنيْد، ومدافعاً عن الفكر المعتدل الصحيح الذي سار عليه لأكثر من ألف عام، والذي انتمى إليه سائر شيوخ الأزهر على مدى تاريخه، ولوْ أنَّ الأزهر تخندق في مذهبٍ واحدٍ؛ لجفَّتْ منابعه، ومات موتاً أبدياً، لكنه ظلَّ باقياً مُمْتدّاً؛ لأنه حافظ على التعدّدية، بطبيعة تكوينه ومنهَجه الوسطي الذي يجمع كل المذاهب الإسلامية في رحابه دون إقصاء لمذهب منها.

هـذا؛ ويبدو الجانب الانفتاحي لدى «الطيِّب» في تفاعله مع العالَم الخارجيّ فيما يخصّ مختلف قضايا الإسـلام والمسلمين، وهو ما بدا من قَبل تولِّيه مشيخة الأزهر، فمُنذُ أنْ كان رئيساً للجامعة، وقّع العديد من الاتفاقيَّات للانفتاح على العالم الإسـلاميّ. كَما اندمج في الكثير من القضايا الخارجيَّة، وأدلى فيها بدلْوه، ومن أهَمِّ ما أعاد التَّأكيد فيه على نظرة المؤسَّسة الدِّينيَّة الأكبر والأقدم والأهم في العالَم؛ هو قضيَّة العلاقة ما بين الإسلام والغرب، ودور الصَّهيونيَّة العالميَّة في تكدير هذه العلاقات، ورؤيته حول ضرورة تطوير آليات العمل الدَّعوي والفكرَي والسِّياسي الإسلامي في العالم، وكذلك الرَّدُّ على العديد من الافتراءات التي تُقال عن الإسلام والمسلمين.

كما استحدث «الإمـام» مجموعةً من الهيئات الجديدة التي تُعين الأزهـر على أداء مهمته، ومن أهـم هـذه الهـيئات: «الرَّابطة العالميَّة لخرِّيجي الأزهـر»، و«مركز الأزهـر العالمي للرصد والفتوى الإليكترونية والترجمة»، كما أشرف على مشروع إنشـاء بيت مستقل للـزكاة، كما أنـشأ «لجنة للمصالحات» بالأزهر، بحيث يكون نشاطها داخل مصرَ وخارجَها. وساهم في تأسيس «مجلس حكماء المسلمين» لتعزيز السلم في المجتمعات المسلمة، وترسيخ قيَم الحوار والتسامح واحترام الآخَر. وقام بعملَ انفتاح بين جامعة الأزهـر والجامعات الأوربية، وقام بإرسال بعثات علمية لتلك الجامعات من خريجي الأزهـر في مختلف التخصصات. كما قام بزيارات للعالم الخارجي، فزار ألمانيا، وفرنسا، وانجلترا، والفاتيكان، وغيرها.

هـذا؛ ويظهر الطابع المُنفتح للدكتور "الطَّيِّب" في كثير من فتاواه -أيْ خلالَ فترة توليه مسئولية الإفتـاء- فقد أصْـدر حوالي ٢٨٣٥ فتوى، تتسم بمرونة الفقه الإسـلامي، وإعمالِ العقل، والأخذ بمبدأ التيسير، ورفع الحـرج، وفقه الواقع، وفقْه الأولويات، إلى غير ذلك ممَّا تصبو إليه الشريعة السـمحة ... من ذلـك أنـه عـالـج رخـصة تعدد الزوجات في الإسلام، وبيَّن شروطها، وضوابطها، وفي هذه الفتوى إنصاف ليس للمرأة فحسب، بل للإسلام ذاته، إزاء ما لحق به من تشويه وسوء فهم للنصوص المقدَّسة.

بينما يبدو الطابع المُحافِظ في قراراته ومواقفه المُتعلِّقة بقضيَّتَيْن أساسيَّتَيْن، هما: قضيَّة فلسطين، وحِوار الأديان. فقد ظهرت حنكته السياسية حينما جمَّد الحوار مع الفاتيكان إلى أجل غير مُسمَّى؛ رداً على تهجُّم (بابا الفاتيكان السابق/ بنديكت السادس عشر) على الإسـلام، ورفض "الشيخ" إعادة العلاقات مع الفاتيكان إلا بعد اعتذار صريح من البابا!.

أيضا: كان للشيخ "الطيِّب" موقف قوي في ظل التوجُّهات التي تدَّعي أنه يمكن أن يكون هناك دين واحد يُسمَّى بـ(الإبراهيمية) أوْ (الدين الإبراهيمي)، وما تطمح إليه هـذه الـدعوى من مزج اليهودية والمسيحية والإسـلام في دين واحـد يجتمع عليه الناس، فقد اعترضَ -فضيلته- على تلك الأوهام، وقال: هذه الدعوى، مثلها مثل: دعوى العولمة، ونهاية التاريخ، والأخلاق العالمية، وغيرها، وإنْ كانت تبدو في ظاهر أمرها كأنها دعوى إلى الإجتماع الإنساني والقضاء على أسباب صراعاته، إلا أنها، هي نفسها، دعوة إلى مصادرة أغلى ما يمتلكه بنو الإنسان وهو: حرية الاعتقاد وحرية الإيمان، وحرية الاختيار؛ وهو ما أكَّدت عليه رسالات السماء في نصوص صريحة، ثمَّ هي دعوة فيها أضغاث الأحلام أضعاف أضعاف ما فيها من الإدراك الصحيح لحقـائق الأمور وطبائعها.

ذات مـرة؛ سألتُ الدكتور/ الطيِّب: مَن الشيخ الذي تعتبره قدوتك في هذا المقام؟

سكتَ مَليًّا، ثم قال: القدوة تُلتمَس من كل العلماء الأجلاء، فعلى سبيل المثال؛ لا أستطيعُ مفارقة كُتب الشيخ الغزالي، ومنذ قرأتُ مؤلفات عباس العقاد، ومحمد عبد الله دراز؛ لا أخشى أيّ مناظرة علمية في الشرق أوْ في الغرب، ولا أكتم إعجابي بالإمام «محمود شلتوت» ذلك الفقيه الـذي مكَّنته مَلَكة الاجتهاد التي اكتسبها من مدرسة الإمام/ محمد عبده، والشيخ/ المراغي- من الدفاع عن الإسلام في الداخل والخارج، وبخاصة في المؤتمرات العالمية الكبرى.

وبالـرغم من إعجاب «الطيب» بمنزلة الشيخ شلتوت الفقهية؛ إلا أنه يسير على خطى الإمام «المراغي»، وله في ذلك مواقف جليلة، ومآثر عديدة ... حسبه أنه من أوائل المنادين بجعل منصب «شيخ الأزهر» بالانتخاب، وليس بالتعيين، بل اقترح أن يكون العمل في «مشيخة الأزهر» تطوعاً، واحتسابا لوجه الله تعالى. وبذلك فقد سَنّ «الإمام» سُنَّة حسنة!

يرى كثير من المراقبين في السياسة والإعلام والأوساط الدعوية: أنه أكثر شيوخ الأزهر حنكة، وأنه سياسي من طراز فريد، وأنّ التاريخ سوف يذكره ضمن الشخصيات التي أعادت للمؤسَّسة والجامعة دورها الريادي بعد سنوات التراجُع، إذْ تتشابه تجربة «الطيِّب» وخلفيَّاته العلميَّة مع الكثير من تجارب رموز التنوير الفكري والديني، أمثال: الإمام مُحَمَّد عبده، ومصطفى عبد الرازق، ومحمد عبد الله دراز، وغيرهم ممَّن مزجوا ما بين خلفياتهم الأزهـريَّة، وبين تعليمهم في الجامعات الأوروبيَّة، فاستطاعوا خلق مرونة فكرية وفق ثوابت الشرع، ومقتضيات العصر!

هذا؛ وعندما زار الرئيس الإيراني السابق «أحمدي نجاد» مشيخة الأزهر؛ كان أول مطالب «الإمام» منه: أنْ يُصدر مرسوماً في بلده؛ يحظر التطاول على مقام صَحابة النبيّ الكرام، وألا تتدخل «إيران» في شئون البلدان العربية مَن قريب أوْ بعيد.

ولا نعجب من مغـادرة «الإمـام» مكتبه، وعدم انتظاره لوزير الخارجية البريطاني؛ بسبب تأخُّر الوزير ربع ساعة عن موعده، فاضطرَّ الوزير لزيارة الإمام في بيته!

ولا نعجب -كذلك- من غضب «الإمـام» وإلغاء السفر للسعودية، لاستلام جائزة الملك فيصل التي مُنحتْ للأزهر الشريف؛ احتجاجاً منَه على الحجز لهَ بالدرجة الأولى، بينما تمَّ الحجز للوفد المرافق له في درجة عادية، قائلاً: إنَّ هذا لا يليق بمكانة العلماء الأدبية والعلمية. فاعتذرت المملكة في اليوم التالي على الفور!

وعندما انطلقتْ حملة مسعوردة من بعض نواب البرلمان لإصدار قانون يقضي بإلغاء هيئة كبار العلماء، وتحجيم اختصاصات شيخ الأزهـر؛ ظلَّ «الشيخ «الطيِّب» كالطوْد الشامخ، لَمْ يستكِن، ولمْ يهتزّ لذاك الصياح، حتى انطفأت نيرانُ المُرتدِّين، وانكسرت شوكتهم، وارتدُّوا خائبين مدحورين!

وهكذا؛ سيظلُّ «الأزهـر» عزيز الجانب، موفور الكرامة، شامخ المكانة؛ بشموخ علمائه، ووقوفهم في وجه الإستبداد والطغيان!

الحقُّ أقول: إن قوة الإمام «أحمد الطيِّب» مستمدة من ثقته بالله، واعتزازه بمرجعيّته الأزهرية، فلا يُقابل خصومه بأفعالهم ولا بأقوالهم، ولكن بموضوعيّته وتسامحه؛ ليقدِّم لهم الأسوة الحسنة!

هذا؛ ولا تزال الآمال معلقة على «شيخ الأزهر» الذي يراه الناسُ قدوةً صالحة، كما يرونَ منصب «المشيخة» أرفع مكانةً وأجلّ قدراً من أيّ منصب آخَر!

فـالـدِّينُ وُجِـدَ قبل وجـود الأوْطـان، والأنبياء قبل الزعمـاء، والعلماء فوق الساسة .. والأزهر سيظلّ حتى بعد هلاك الحكّام ... وأبصِر فسوف يُبصِرون!

محمَّـد عبد الشافي القوصي

جمال حمدان والخلافة الإسلامية (1)

الحركات السياسية المتشحة بالدين تنتهي إلى ثيوقراطيات متواضعة يتحول بها شيوخ الطرق إلى ملوك الصحراء تتقوقع وتتحجر لتصبح معاقل الرجعية العاتية وتظل فى تحالف مطلق مع الاستعمار

سأخوض مغـامرة هنـا فـى حلـقـات، لأقـدم لك خلاصة ما كتبه حمدان عن نظرية «الخلافة الإسلامية» أو «الوحدة الإسلامية».

فى عام ١٩٧١ أصدر حمدان كتابا رشيقا لا يزيد عن ٢٠٠ صفحة من القطع الصغير بعنوان «العالم الإسلامى المعاصر» ويبدو أن هذا عنوان تجارى لدار النشر لأننا نستشف من مقدمة حمدان أنه يقصد بشكل مباشر «جغرافية الإسلام».

قسم حمدان موضوعه إلى أربعة فصول، الفصول الثلاثة الأولى قد لا تغرى الكثيرين بالصبر عليها لأنها بحث تفصيلى فى جغرافية انتشار الإسلام وتوزيعه على القارات والأقاليم. صحيح أن حمدان يكتب هنا بلغته وأسلوبه الفريد لكنه أسير المعلومات والخرائط ويتحرك بعقلية الباحث الملتزم بالمراجع والمصادر.

أما الفصل الرابع والأخير والذى يحمل عنوان «نظرية الوحدة الإسلامية» فهو ملعب حمدان الأثير، حيث ينطلق مغردا بعبقريته فى الربط والتحليل المستمد من صفاء ذهني، ومتمتعا بالجدار الحصين الذى أحاط به عقله من مشوشات التأثير التى نعرفها فى حياتنا المعاصرة. كان حمدان قد قطع شوطا مهما فى عزلته، واعتاد على التجلى بعد ٨ سنوات من الخلوة المثمرة التى قررها فى عام ١٩٦٣ فانطلق هنا يحلق ويغرد.

فى كل حلقة سأضع ١٠ أفكار فقط، توجز ما أراد حمدان عرضه فى هذه القضية المهمة.

(١) الإسلام ليس أول الأديان التى تتخذها السياسة قناعا وستارا، فالتاريخ حافل بنماذج كثيرة مثل الحركات الصليبية التى كانت استعمارا متنكرا بشعار الصليب، وليس الاستعمار الأوروبى الحديث إلا ويحمل شكلا من أشكال تلك الحركات. ورغم أن الإسلام لم يعرف هيراركية كهنوتية أو وساطة بابوية إلا أن تاريخه لم يخل من قدر من تداخل بين الدين والدولة، الأمر الذى تسبب فى استغلال الدين لخدمة السياسة أو تغطية أغراضها. وما الفرق الدينية والشيع والطوائف التى تـكاثرت فجأة فى صدر الإسلام وما بعده إلا تحزبات وتحيزات سياسية وصراعات على السلطة والحـكم، وما زال أثرها باقيا إلى اليوم.

(٢) وفيما عدا الوحدة الدينية المؤكدة إلا أن العالم الإسلامى ليس وحدة طبيعية. فالإسلام منتشر فى بيئات متنوعة ومختلفة لا يجمعه نمط بيئى واحد (أقاليم استوائية ومدارية واستبس وصحارى وغابات ومناطق ساحلية وقارية، سهلية وجبلية، حارة وباردة...إلخ). كما أن العالم الإسلامى ليس وحدة بشرية جامعة ففيه مئات اللغات والأجناس والسلالات والقوميات، ما قد يجعله متحفًا بشريًا أو نمطًا يشبه الموزايكو (قوقاز، وزنوج، درافيديون وملاويون، مغول، عرب وترك وفرس... الخ). وكل من هـذه أو بعضها قابل للقسمة إلى مزيد من التفريعات والتصانيف. باختصار العالم الإسلامى ليس وحدة حضارية بالمعنى الانثروبولوجى الكامل للمصطلح.

(٣) إن تسمية «العالم» هى فى حد ذاتها تسمية نافية للوحدة، فهذه التسمية دليل على ما فيه من تفاوت وتباين، بل وتنافر وخلاسية فى أبعاده غير الدينية. إن العالم الإسلامى باختصار قطاع عرضى كامل من العالم القديم بقاراته الثلاث أو نموذج مصغر لذلك العالم القديم.

(٤) رغم أن العصور الوسطى هى عصر الدين بامتياز، سواء فى ذلك الشرق أو الغرب. إلا أن الخلافة، التى كانت تجسد وحدة العالم الإسـلامى مركزيًا فى العصر البطولى للإسلام إبان الدولة العربية الإسلامية، شهدت تفـككا وتعددا. وانقسم العالم الإسلامى إلى عدد سريع التغير، من الـدول المنفصلة المستقلة، وأحيانًا هوت هذه إلى زحمة مربكة كرقعة الشطرنج من الدويلات والإمارات والأتابكيات، حتى فقد العالم الإسلامى وحدته السياسية الأولى. ولعل جزءًا من السبب فى هذا التفتيت أن نطاق العقيدة كان قد اتسع كثيرًا عما كان عليه فى صدر الإسـلام، ولم تعد قاصرة على تلك الـكتلة الأرضية المتصلة المندمجة بعد أن قفز الإسلام عبر حدود الصحارى هنا وعبر البحار هناك.

(٥) لعبت الأخطار الخارجية ضد العالم الإسلامى دورا فى تغذية الاتجاهات الجاذبة ذات النزعة المركزية من اجل إعادة لم شتاته وتوحيد المبعثر منه، وكان من أهم تلك الأخطار الخارجية «الصليبيات»، رغم دوافعها الـكامنة كاستعمار اقتصادى خبيء. وهنا فقط بدأت ردة الفعل فى صورة دينية، وتلخص الصراع فى مبارزة ملحمية ومصيرية بين الإسلام والمسيحية. وحتى هذه الوحدة التى أثارتها الصليبيات لم تتجاوز مصر والشام.

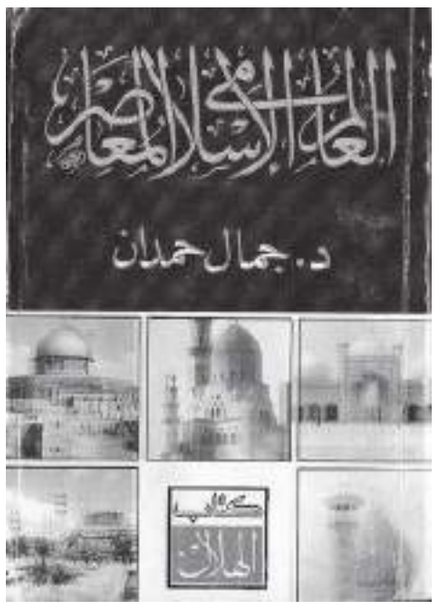

(٦) إذا اعتبرنا أن ما كتبه ابن تيمية فى القرن الرابع عشر (ومن بعده تلميذه ابن قيم الجوزية)، مثالا على أفكار الوحدة الإسلامية باعتبارهما – عند جمهرة الفقهاء المحدثين – أول دعاة الوحدة الإسلامية. فإن ما دعوا إليه فى الحقيقة جاء صدى لعصر تفـكك وتمزق الدول الإسلامية وعصر الأخطار الخارجية المحدقة. وإذا تفحصنا ما قدموه فلن نجد أنهم وأمثالهم نـادوا بدولة إسلامية عالمية موحدة، وإنما إلى شيء أشبه «باتحاد كونفدرالي» يجمع العالم الإسلامى جميعًا، ولـكن شيئًا من ذلك لم يتحقق.

(٧) استغل الاستعمار الدينى التركى الخلافة مطية وواجهة لاكتساب الشرعية، وباسم الدين نجح فى فرض استعماره الغاشم على المسلمين، وعلى أساس الدين ونظام الملة الذى ابتدعه لم ينجح إلا فى أن يفاقم مشكلة الطائفية ويبلورها فى العالم العربي. لم تكن الدعوة للخلافة سوى شكلية اسمية أفرغت من محتواها الأصيل كوعاء للوحدة الإسلامية. وعلى ذكريات الصليبيات استطاع الأتراك العثمانيون أن يستعمروا فكرة الخلافة ويستثمروها لـكى تعطى شرعية دينية لسيطرتهم الجديدة فى العالم الإسلامي. هذا على الرغم من أن العثمانية لم تشمل على اتساعها إلا قطاعًا فى غرب العالم الإسلامي، أما إلى الشرق من جبال زاجروس فى إيران فقد تعددت الدول وأجزاء الدول الإسلامية المستقلة. كما أنه ليس صحيحًا أن الخلافة العثمانية أعادت جوهر الوحدة الإسلامية، ففيها لم يكن «المؤمنون أخوة» عند أمير المؤمنين فى أى معنى، وإنما الصحيح أن العثمانية «استعمار ديني» تخفى وراء وحدة الدين ولـكنه جعل من أقاليم الدولة توابع ومستعمرات حقيقية للمركز فى عاصمة تلك الدولة.

(وكما استثمرت العثمانية الخلافة فى بدايتها لتفرض نفسها، فإنها سعت إلى تجنيدها فى النهاية لتمنع انهيار الدولة العثمانية حين عادت أوروبا ليست فى صورة حملات صليبية بل فى صورة استعمار واسع شامل مزود بحضارة وقوة جديدة لتطوق العالم الإسلامى من خلف ومن قدام، من البحر والبر، وذلك مع بداية عصر الاستعمار الحديث وبوجه خاص بعد الانقلاب الصناعي. وبعكس الصليبيات، لم يعد هذا تلاقى الأكفاء أو الأنداد، وإنما كان الإسلام متخلفًا متـكلسًا فى حضيضه الحضارى والسياسي. وبدأ العالم الإسلامى يتهاوى ركنًا بعد ركن ويتداعى بصورة كاسفة. هنا فقط أعادت العثمانية فكرة الخلافة لتنقذ نفسها. لقد وقع العالم الإسلامى كله تحت الاستعمار البريطانى فيما عدا اليمن وقلب الجزيرة العربية، لا لأنه مهد الإسلام بقدر ما كان لفقره وعدم حاجة الاستعمار له آنذاك.

(٩) لقد تجلت أهم تلك الحركات السياسية المتشحة بالدين فى الصحراء؛ حيث شيوخ الطرق؛ وحيث الدعوة للجهاد، واندلعت كالعدوى الصحية وإن ظلت كالدوامات المحلية المنفصلة. على يد رجال الدين من مرابطين ودراويش وشيوخ "وملاه"، فى مدارس وزوايا وخلوات، يبدأ كل منها فى مشتل صحراوى بعيدًا عن يد الاستعمار، ثم لا تلبث أن تخرج من مشاتلها إلى المعمور وتتعدى تعاليمها إلى الـكفاح المسلح لتحرير الإسلام والمسلمين. وكان أبرز أمثلة ذلك الوهابية فى صحراء نجد، والسنوسية فى صحارى شمال إفريقيا، والمهدية فى سفانا السودان. وتعدى تأثير بعضها رقعته الجغرافية كإشعاعات الوهابية فى بلاد الهند والأفغان. بيد أنها جميعًا تنتهى فى التحليل الأخير إلى ثيوقراطيات متواضعة، مجرد إمارات أسرية وراثية يتحول بها شيوخ الطرق إلى ملوك الصحراء، تتقوقع فى انفصالية وطنية ضيقة وتتحجر على نظمها وأنماطها الاجتماعية والحضارية لتصبح معاقل الرجعية العاتية فى العالم الإسلامي، كل أولئك فى تحالف مطلق مع الاستعمار الذى قامت أصلاً لتتصدى له.

(١٠) إن الدعوة الحماسية للخلافة الإسلامية حالة متوقعة يتخندق فيها الإسلام المثخن بالجراح فى حمى الدين، ويتخذ العمل السياسى من أجل الـكفاح التحررى شكلا دينيًا، لا سيما أن الإسـلام نفسه كعقيدة تعرض حينذاك لحملات لا مثيل لها من التشهير والقذف من جـانـب المستشرقين وغير المستشرقين وتعرض لموجة أقرب إلى الصليبيات الجديدة. وكما فى الصليبيات تحول العالم الإسلامى فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر، إلى خلية عارمة تزخر بالحركات الدينية والتيارات والدوامات السياسية تنادى بالوحدة الإسلامية الكبرى، وتتخذ بوصلتها ماضى الإسلام البطولي.

بقلم: د. عاطف معتمد

نقلا عن صفحة الكاتب على "فيس بوك"